﴿سورة الفجر﴾

وفيها احدى عشرة مسألة :

المسألة الأولى: بم أقسم الله تعالى فى أول السورة وما المُقسَم عليه؟

والجواب: أقسم الله ﷻ فى هذه السورة بأربع أشياء من خلقه، وهى :

- ﴿**وَالْفَجْرِ(١)**﴾: قال بعض المفسرين هى صلاة الفجر فى كل الأيام، قال الماوردى: (وهو انفجار الصبح من أفق المشرق، وهما فجران: فالأول منهما مستطيل كذَنَب السرحان يبدو كعمود نور لا عرض له، ثم يغيب لظلام يتخلله، ويُسمَّى هذا الفجر المبشر للصبح ، وبعضهم يسميه الكاذب لأنه كذب بالصبح وهو من جملة الليل لا تأثير له في صلاة ولا صوم، وأما الثاني فهو مستطيل النور منتشر في الأفق ويسمىالفجر الصادق لأنه صدقك عن الصبح) [١]، (وقال قتادة: هو أوّل يوم من المحرّم تتفجر منه السنة)[٢]، (وفي بعض التفاسير: أنّ الفجر: الصخور والعيونتتفجّر بالمياه)[٣].

قلت: والأرجح القول الأول خاصة لتعلقه بما بعده من قسم بالأزمنة والمواقيت .

- ﴿**وَلَيَالٍ عَشْرٍ(٢)**﴾: اختلف المفسرون فى تحديدها فقال بعضهم هى عشر ذى الحجة وهو قول مجاهد وقتادة والضحّاك والكلبي والحلبي وغيرهم، وقال بعضهم: هى الأيام العشر من رمضان وقيل الأيام الأواخر منه، وقال بعضهم: العشر الأُولى من المحرّم التي عاشرها يوم عاشوراء .
- ﴿**وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣)**﴾ الأصل فى اللغة إن الشفع العدد الزوجى الذى يقبل أن يُقسَم على اثنين، والوتر عدد فرد لا يقبل القسمة

(١) النكت والعيون ٦ / ٢٦٤
(٢) الكشف والبيان ١٠ / ١٩١ .
(٣) المرجع السابق ١٠ / ١٩١.

على اثنين، وقد تعددت أيضاً أقوال المفسرين فى بيان معنى الشفع والوتر فقال بعضهم: الوتر هو الله ﷻ إذ لا شريك له ولا ثانى له فهو واحد أحد أما الشفع فهم جميع خلقه، وذهب بعضهم إلى أن الوتر هو آدم عليه السلام حيث خلقه الله ﷻ بيده فرداً واحداً فهو أبو البشر، والشفع هى حواء أم البشر حيث شفع الله ﷻ آدم بها فصارا معاً اثنين، وقيل بل هى الصلوات منها شفع كالفجر ومنها وتر كالمغرب، و(قال عكرمة: "عرفة وتر، ويوم النحر شفع عرفة يوم التاسع، والنحر يوم العاشر") [١]، وقيل غير ذلك من أقوال لا تخرج عما ذكرناه ... والعلم عند الله ﷻ .

- ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ(٤)**﴾: والأصل يسرى أى يسير ويذهب، ومعلوم أن الليل لا يسير ولا يذهب وإنما يُسار فيه والمعنى إذا سار فيه أهله، وقال ابن عباس رضي الله عنه: إذا يسر أى إذا أظلم، وقيل بل الليل يذهب (لأن الليل يسير بمسير الشمس والفلك فينتقل من أفق إلى أفق، ومنه قولهم جاء الليل وذهب النهار) [٢] .

فهذه هى الأشياء الأربعة التى أقسم بها الله ﷻ، فما المُقسَم عليه ؟

والجواب: إن المفسرين قد اختلفوا فى تحديد المُقسَم عليه،فقال بعضهم: إنه لم يُذكر صراحة فى السورة الكريمة بل هو محذوف وتقديره (ليعذبن) وذلك بدلالة ما جاء بعده من حديث الله ﷻ عن إهلاكه لعاد وثمود وفرعون، (وقال ابن الانباري: إن المُقسَم عليه هو﴿**إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ١٤**﴾، وقال مقاتل فى قوله: ﴿**هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ(٥)**﴾ إن ﴿**هَلْ**﴾ هنا بمعنى إن، والتقدير: إن في ذلك قسماً لذي حجر، وهى المُقسَم عليه)[٣] .

---

(١) الدر المنثور للسيوطى ٨ / ٥٠٤ ، دار الفكر، بيروت – لبنان ، ١٩٩٣م .
(٢) النكت والعيون ٦ / ٢٦٧
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ٤٣

المسألة الثانية: ما معنى قوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ(٥)﴾؟

الجواب: الحِجر هو العقل، وسُمى العقل حِجراً لأنه يحجر صاحبه ويمنعه من الوقوع فى المنكرات والمهالك ومنه سُمِي الحَجَرلامتناعه بصلابته ، ومنه حجر الحاكم على فلانأي منعه وضبطه عن التصرف، ولذلك سُمِيت الحُجرة حجرةلامتناع من فيها بها، وقد ورد فى بعض كتب التفاسير تفسير الحجر بالحِلم، أو الستر عن الناس والحق أن كلها معانى تدور فى إطار العقل ولا تتعارض معه، فعقل المرء يجعله حليماً غير مجاهر بعيوبه أمام الناس فيستر نفسه بستر الله ﷻ عليه .

ومعنى الآية يقول تعالى ذكره: (هل فيما أقسمت به من هذه الأمور مُقنِع لذي حجر؟، وإنما عُنِيَ بذلك: إن في هذا القسم مكتفى لمن عقِل عن ربه مما هو أغلظ منه في الإقسام) [1] .

المسألة الثالثة: ضرب الله ﷻ ثلاثة أمثلة للمكذبين الذين أهلكهم، فمن هم ؟

الجواب: ضرب الله ﷻ ثلاثة أمثلة للطغاة الكافرين الذين أهلكهم الله ﷻ وجعلهم للعالمين آية، وهم :

المثال الأول: هو قوله ﷻ: **﴿أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨)﴾** حيث ذكر الله ﷻ لنبيه كيف أهلك عاداً وهم قوم هود – عليه السلام – ﴿إِرَمَ﴾اختلف أهل التأويل فى معناها، فقال بعضهم: هى اسم بلدة اختلفوا كذلك فى تحديدها فقال بعضهم هى الإسكندرية وقال آخرون هى دمشق، وقال آخرون: بل ﴿إِرَمَ﴾ هو اسم رجل كان من نسله قبيلة عاد فهو جدهم الأكبر وإليه يُنسبون، وقال آخرون: بل ﴿إِرَمَ﴾ بمعنى الهالك والعرب يقولون: " أَرِم بنو

(١) جامع البيان فى تأويل القرآن ٢٤ / ٤٠٢ .

فلان: أى هلكوا، ﴿ذَاتِ ٱلعِمَادِ﴾ قيل أى أجسامهم طويلة طول العمد، (وقال بعضهم: بل قيل لهم: ﴿ذَاتِ ٱلعِمَادِ﴾ لأنهم كانوا أهل عَمَد، يبحثون عن مواضع المطر، وينتقلون إلى الكلأ حيث كان، ثم يرجعون إلى منازلهم (فكانوا عرباً سيارة يبنون بيوتهم على الأعمدة على عادة العرب)[1].

يقول صاحب الظلال: (وقيل: إنها من العرب العاربة أو البادية وكان مسكنهم بالأحقاف وهي كثبان الرمال في جنوبي الجزيرة بين حضرموت واليمن، وكانوا بدواً ذوي خيام تقوم على عماد، وقد وصفوا في القرآن بالقوة والبطش، فقد كانت قبيلة عاد هي أقوى قبيلة في وقتها)[2] وعلى هذا فالعماد فى الآية إما أن يُراد به طول أجسامهم أو عماد خيامهم التى يتنقلون بها بحثاً عن مواطن القطر ومواضع الرعى، وقد وصفهم الله ﷻ بقوله: ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨)﴾ أى لم تعرف الأرض لهم مثيلاً.

قال البغوى: (أي لم يُخلق مثل تلك القبيلة في الطول والقوة، وهم الذين قالوا: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [3])[4].

المثال الثانى: قوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخرَ بِٱلوَادِ(٩)﴾ وهم ثمود قوم صالح – عليه السلام – ﴿جَابُواْ ٱلصَّخرَ بِٱلوَادِ﴾ أى كانوا يقطعون الصخر وينحتون فى الجبال بيوتاً مصداقاً لقول الله ﷻ: ﴿وَكَانُواْ يَنحِتُونَ مِنَ ٱلجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ (٨٢)﴾ [5] وقد قيل: إن ثمود أول أمم البشر الذين نحتوا الصخر والرخام .

المثال الثالث: قوله تعالى: ﴿وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلأَوۡتَادِ(١٠)﴾ وهو ملك مصر وقد اختلف المفسرون فى المراد من الأوتاد، فقال بعضهم إن المراد

(١) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ٦٢٢/٨ .
(٢) فى ظلال القرآن ٨ / ٣٤ .
(٣) سورةفصلت / من الآية ١٥ .
(٤) معالم التنزيل ٨ / ٤١٨ .
(٥) سورة الحجر/ الآية ٨٢ .

بها الجيوش والجنود التى تشد ملكه كما تشد الأوتاد الخيمة، أو سمى الجند أوتاداً (لكثرة المضارب التي كانوا يضربونها ويوتّدونها في أسفارهم) [١]، وقال مجاهد وغيره : "كان يعذّب الناس بالأوتاد وكان إذا غضب على أحد مدّهُ على الأرض وأوتد يديه ورجليه ورأسه على الأرض"[٢]، وأياً كان المعنى المراد من الأوتاد فإنها تدل على البطش والقوة والملك العضود الذى لم يغن عن فرعون وجنده من عذاب الله وانتقامه شيئاً .

المسألة الرابعة: لم استعمل القرآن الكريم لفظ السوط كأداة للعذاب دون غيره من الأدوات ؟

والجواب: لعل ذلك من وجوه :

الأول: أن العرب كانت تعذب بالضرب بالسياط، فخاطبهم القرآن وتوعدهم بما يفهمونه، قال القرطبى: (وأصل ذلك أن السوط هو عذابهم الذي يعذبون به، فجرى لكل عذاب، إذ كان فيه عندهم غاية العذاب) [٣] .

الثانى: جاء استعمال القرآن الكريم للفظ السوط للدلالة على اختلاط العذاب بلحمهم ودمائهم وأعصابهم، فأصل السوط فى اللغة من الخلط، فالعرب يقولون: ساط يسوط سوطاً إذا خلط الشئ بعضه ببعض فهو سائط قال ابن منظور: (وسُمِّي السَّوْطُ سَوْطاً لأَنه إِذا سِيطَ به إِنسان أَو دابّة خُلِطَ الدمُ باللحمِ وهو مُشْتَقٌّ من ذلك لأَنه يَخْلِطُ الدم باللحم ويَسُوطُه) [٤]، ومن ذلك قول كعب بن زهير ﷺ فى قصيدته المشهورة (بانت سعاد) وفيها :

لكِنَّها خُلَّةٌ قدْ سِيطَ من دَمِها ** فَجْعٌ ووَلْعٌ وإِخْلافٌ وتَبْدِيلُ

أى كأن هذه الأخلاق قد سيطت بدمها أى اختلطت به وامتزجت معه .

الثالث: أشار الزمخشرى إلى معنى بديع يُفهم من ذكر السوط فى الآية، وهو أن السوط أقل أداة تُستخدم فى التعذيب، فكأن الله ﷻ قد عذبهم

---

(١) الكشف والبيان ١٠/١٩٧ .
(٢) المرجع السابق ١٠/١٩٨ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٤٩ .
(٤) لسان العرب ٧/٣٢٥ .

بأقل أدوات العذاب مقارنة بما ينتظرهم من عذاب الآخرة وما فيها من نار الجحيم، وماء الحميم، والزقوم، وحر السعير، والغسلين، والأغلال والزمهرير قال الزمخشرى: (وذكر السوط : إشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا من العذابالعظيم بالقياس إلى ما أعدّلهم في الآخرة ، كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به، وعن عمر بن عبيد: كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال: إن عند الله أسواطاً كثيرة، فأخذهم بسوط منها) [١] .

المسألة الخامسة: ما الدلالة الإيمانية التى يمكن للعبد أن يستفيدها من قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ (١٤)﴾؟

والجواب: المرصاد من (رصد تقول: رَصَدْتُه إذا قعدت له على طريقة تترقّبه وأرصَدْتُ له العقوبة إذا أعدَدتْها له وحقيقته : جعلتُها على طريقة كالمترقّبة له) [٢] (وهذا تمثيل لإرصاده تعالى بالعصاة وأنهم لا يفوتونه) [٣] .

وفى الآية تهديد للكافرين المعاندين وتثبيت لقلوب المؤمنين، وبيان قدرة الله ﷻ على الظالمين وأنهم لا يفوتونه ولا يعجزونه، فتبث الآية الأمل فى قلوب المظلومين المضطهدين من أجل دينهم .

كما تُنمى الآية عند المؤمن مفهوم المراقبة لله ﷻ والحذر من عقابه وعدم الاغترار بستره، فإنه ﷻ يمهل ولا يهمل، وإذا أخذ العبد الظلوم لم يفلته، فإن الحليم إذا غضب لم يقف لغضبته شئ، فنسأل الله ﷻ العفو الجميل والستر العميم .

المسألة السادسة: كيف أوضحت الآيات حال الإنسان الجحود فى حالة السراء، الجزوعفى حالة الضراء ؟

الجواب: تحدثت الآيات عن حالتين للإنسان لا يخلو منهما بحال :

الأولى: حالته عند الغنى والإكرام فيظن بنفسه الخير والقرب من الله ﷻ، ويعتقد أن هذا الغنى والمال دلالة على الرضا من الله عليه، قال الله

(١) الكشاف ٤/ ٧٥١- ٧٥٢.
(٢) الفائق فى غريب الحديث للزمخشرى، ٦٢/٢، دار المعرفة، لبنان، الطبعة الثانية .
(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٥٦/٩ .

ﷻ: ﴿**فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ (١٥)**﴾ فاعتقد هذا العبد أن الدنيا وزينتها .

الثانية: عند المنع والفقر يعتقد هذا العبد أن هذا التضييق دليل الإهانة والبعد عن الله ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿**وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ (١٦)**﴾.

وما علم هذا المسكين أنه مخطئ فى الحكم والتقدير، فقيمة العبد عند الله ﷻ لا تتوقف على عرض الدنيا الزائل فإن الله ﷻ يعطى الدنيا لمن يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين إلا لمن أحب، يقول صاحب الظلال معلقاً على تقييم هذا الإنسان: (غير أن الإنسان حين يخلو قلبه من الإيمان لا يدرك حكمة المنع والعطاء، ولا حقيقة القيم في ميزان الله . . فإذا عمر قلبه بالإيمان اتصل وعرف ما هنالك وخفت في ميزانه الأعراض الزهيدة وتيقظ لما وراء الابتلاء من الجزاء، فعمل له في البسط والقبض سواء، واطمأن إلى قدر الله به في الحالين؛ وعرف قدره في ميزان الله بغير هذه القيم الظاهرة الجوفاء!) [1] .

وهذه السورة المباركة مكية فقد نزلت فى مجتمع المشركين الذين يُعلون من قيمة الدنيا ويرفعون من شأن أصحابها ويبنون معيار التفاضل فيما بينهم على ما يتحصله المرء من هذا النعيم الزائل ويرون أن الفقير لو أحبه الله لأغناه وأن الغنى ما أغناه الله إلا لأنه يكرمه ويحبه، وهذا معيار المشركين فى كل زمان ومكان حتى قال صاحب الجنتين المنكر للبعث والنشور وهو يحاور أخاه المؤمن الفقير فيما حكاه القرآن عنه : ﴿**وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً (٣٦)**﴾ فقد ظن هذا المغرور بدنياه أنه لولا حب الله له ما أعطاه هاتين الجنتين فى الدنيا وأنه مستحق لهما فى الآخرة بالضرورة .

(١) فى ظلال القرآن ٣٥/٨ .

ونلحظ هنا فى الآيتين التعبير القرآنى الحكيم عن المنح والمنع، والبسط والقبض، والغنى والفقر بالابتلاء، قال الله ﷻ فى حال المنح: ﴿**فَأَمَّا ٱلإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ**﴾ وقال فى حال المنع: ﴿**وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ**﴾ فلفت الأنظار إلى أن الحالتين ابتلاء، قال الله ﷻ: ﴿**وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ(٣٥)**﴾[1]، فالإنسان فى ابتلاء دائم بالمنح والمنع فالله ﷻ يعطى العبد ليرى ماذا سيفعل فى هذه النعم ويختبر شكره وتواضعه، ويبتليه بالفقر والتضييق ليرى صبره ورضاه بقضاء الله وقدره ، فحال العبد بين نعمة فيشكر وبين نقمة فيصبر .

المسألة السابعة: ما معنى التراث؟ ولم جاء القرآن الكريم مع التراث بالأكل اللم ومع المال بالحب الجم، فقال: ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا (١٩) وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا(٢٠)﴾؟

الجواب: التراث هو الميراث الذى يرثه الورثة من قريبهم الميت، والأكل اللم هو الأكل الشديد الجامع الذى لا يترك شيئاً، فذمهم الله ﷻ بأكلهم الميراث بالباطل وذلك بأكلهم نصيبهم من الميراث مع نصيب غيرهم، أو لأنهم كانوا لا يورثون النساء والأطفال ويأكلون نصيبهم من الميراث، أو لأنهم كانوا يأكلون الميراث وهم يعلمون أن المتوفى قد جمعه من حلال ومن حرام فيجمعون الحلال مع الحرام ويأكلونه دون تحرج ولا تأثم ، ويجوز أن تكون الآية ذماً للوارث الذى يرث المال من غير كد ولا تعب فيسرف فى إنفاقه، قال الزمخشرى: (ويجوز أن يذمّ الوارث الذي ظفر بالمال سهلاً مهلاً، من غير أن يعرق فيه جبينه، فيسرف في إنفاقه، ويأكله أكلاً واسعاً جامعاً بين ألوان المشتهيات من الأطعمة والأشربة والفواكه، كما يفعل الورّاث البطالون) [2]، ولذا ناسب الميراث أن يأتى معه الأكل الجم الواسع الذى لا يفرق بين حلال وحرام .

---

(١) سورة الأنبياء / من الآية ٣٥.
(٢) الكشاف ٤/ ٧٥٤ .

أما المال فقد جُبل الإنسان على حبه جباً جماً أى حباً شديداً كثيراً مع الحرص عليه والشره فيه والبخل به، وتلك عادة الإنسان التى جُبل عليها، مؤمن كان أو كافر، فالمؤمن يحب المال ليقضى به مصالح دنياه ويُعين به إخوانه وينفق منه على الفقراء والمحتاجين، والكافر يحب المال ليتكاثر به وينفقه فى شهواته وقضاء ملذاته .

المسألة الثامنة: ما الدلالة العقدية من قوله تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ﴾؟

الجواب: دار خلاف بين أهل السنة من جانب، وبين المعتزلة والقدرية من جانب آخر حول الجنة والنار هل هما موجودتان الآن، أم أن الله ﷻ سيخلقهما يوم القيامة، فأهل السنة والجماعة يرون أن الجنة والنار موجودتان، وأنهما لا تفنيان أبداً ولا تبيدان، قال: (حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية فأنكرت ذلك وقالت: "بل ينشئهما الله يوم القيامة !"، وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله وأنه ينبغي أن يفعل كذا، ولا ينبغي له أن يفعل كذا! وقاسوه على خلقه في أفعالهم، فهم مشبهة في الأفعال ودخل التجهم فيهم، فصاروا مع ذلك معطلة، وقالوا: خلق الجنة قبل الجزاء عبث؛ لأنها تصير معطلة مددا متطاولة !!

فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى، وحرفوا النصوص عن مواضعها وضللوا وبدَّعوا من خالف شريعتهم) [1]، ومن بين ما يستدل به أهل السنة من نصوص على وجود الجنة والنار وأبديتها قوله ﷻ عن الجنة: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)**﴾[2]، وقوله ﷻ عن النار: ﴿**إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادا (٢١) لِّلطَّٰغِينَ مَأَبا (٢٢)**﴾[3]، وقد

(١) شرح العقيدة الطحاوية ٦١٥/١ .
(٢) سورة آل عمران / الآية ١٣٣ .
(٣) سورة النبأ / الآيتان ٢١-٢٢ .

رأى النبي ﷺ سدرة المنتهى، ورأى عندها جنة المأوى، كما في الصحيحين من حديث أنس ﷺ في قصة الإسراء وفي آخره: (ثم انطلق بي جبرائيل حتى أتى سدرة المنتهى، فغشيها ألوان لا أدري ما هي، قال: ثم دخلت الجنة فإذا هي جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك)[1] فدلَّ هذا وغيره من الآحاديث على وجود الجنة والنار.

وفى هذه الآية من سورة الفجر ﴿**وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۢ بِجَهَنَّمَۚ**﴾ دليل على وجودها وقِدَمها وأنها ستأتى يوم القيامة ليراها الناس، ولو كانت منعدمة لقالت الآية (وخُلِقت جهنم) لكن الآية تدل على مجيئ جهنم لأنها مخلوقة وموجودة منذ القدم .

المسألة التاسعة: ما الدرس المستفاد من قول الإنسان يوم القيامة: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي (٢٤)﴾؟

الجواب: إن الإنسان يوم القيامة ستنكشف له الحقيقة؛ فيرى حقيقة الدنيا الزائلة، وزخرفها الفانى الذى طالما أضاع وقته واستفرغ فيها جهده مفرطاً فى جنب الله ﷻ، قد يجمع المال من حلال ومن حرام ثم يتركه لورثته، وقد يقترض من الربا لإرضاء زوجه وبنيه ثم يموت ويُحاسب على الربا وورثته يتمتعون بماله، قد يقتل من أجل منصب أو جاه ثم يزول جاهه ويضيع منصبه، وينزل إلى قبره وحيداً منفرداً لتستبين له الحقيقة، بأن ما عاشه فى هذه الدنيا ليس هو الحياة، بل الحياة الحقيقية هى التى سيُقدِم عليها ولم يُعد لها عدتها بل كان مشغولاً عن حياته الحقيقية بزيف الدنيا، فيقول عندئذٍ متحسراً: ﴿**يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي(٢٤)**﴾، ولكنه ندمٌ وقت لا ينفع الندم ... نسأل الله ﷻ العفو والعافية ... وقد أحسن من قال وتنسب لعلى بن أبى طالب ﷺ:

النفس تبكى على الدنيا وقد علمت * أن السلامة فيها ترك ما فيها**
لا دار للمرء بعد الموت يسكنـــها * إلا التى كان قبل الموت يبنيها**

(١) صحيح البخارى ٣ / ١٢١٧ ورقمه ٣١٦٤ ، صحيح مسلم ١ / ١٤٨ ورقمه ١٦٣ .

فإن بناها بخير طاب مسكنـــــــه * وإن بناها بشرٍ خاب بانيـــها**

وفى تحسر المفرطين الظالمين رد على أصحاب الضلال من الجبرية وغيرهم الذين قالوا بأن الإنسان فى هذه الدنيا مجبر مسير لا مخير، حيث دلَّ تحسرهم على أن اختيار الحق كان متاحاً لهم فى الدنيا وأنهم ليسوا بمجبرين على فعل المنكرات واختيار طريق الشرك والظلمات، بل أعطاهم الله ﷻ حرية الاختيار وأرسل لهم الرسل وأنزل لهم الكتب لكنهم تنكبوا طريق الهداية واتبعوا طريق الغواية بمحض اختيارهم وكامل إرادتهم بدليل تحسرهم على تركهم شيئاً كان بإمكانهم الأخذ به والنجاة من خلاله لكن شهواتهم وعنادهم ورفقاء السوء معهم أوردوهم موارد الهلاك ... نسأل الله ﷻ الثبات على دينه حتى الممات .

المسألة العاشرة: ما معنى ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦)﴾؟

الجواب: ذهب جمع من المفسرين كالقرطبى والفخر الرازى وغيرهما إلى أن المراد أنه فى يوم القيامة لا يعذب مثل عذاب الله أحد، ولا يوثق كوثاقه أحد، فالضمير هنا – أى الهاء– يرجع إلى الله ﷻ وهو قل ابن عباس والحسن. وفى قراءة الكسائى بفتح الذال (يعذَّب) وبفتح الثاء (يوثَق) أي لا يعذَّب أحد في الدنيا كعذاب الله ﷻ الكافر يومئذ، ولا يوثَق كما يوثق الكافر، قال القرطبى:

(والمراد إبليس، لأن الدليل قام على أنه أشد الناس عذاباً لأجل إجرامه، فأطلق الكلام لأجل ما صحبه من التفسير، وقيل: إنه أمية بن خلف، حكاه الفراء، يعني أنه لا يعذَّب كعذاب هذا الكافر المعين أحد، ولا يوثَق بالسلاسل والأغلال كوثاقه أحد، لتناهيه في كفره وعناده، وقيل:

أي لا يعذب مكانه أحد، فلا يؤخذ منه فداء، والعذاب بمعنى التعذيب، والوثاق بمعنى الإيثاق.

المسألة الحادية عشرة: فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا ٱلنَّفسُ ٱلمُطمَئِنَّةُ (٢٧) ٱرجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَة مَّرضِيَّة (٢٨) فَٱدخُلِي فِي عِبَدِي (٢٩) وَٱدخُلِي جَنَّتِي (٣٠)﴾ تساؤلات مثل: من النفس المطمئنة؟ ومتى سيُنادى عليها بهذا النداء؟ وما معنى النداء عليها بـــ ﴿ٱرجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾، وما معنى: ﴿فَٱدخُلِي فِي عِبَدِي﴾؟ وفيمن نزلت ؟

والجواب: تعددت أقوال المفسرين فى تعريف النفس المطمئنة، وكلها ترجع إلى أصل واحد وهو النفس المؤمنة بالله ﷻ المستعدة للقائه، قال ابن عباس: أي المطمئنة بثواب الله، وقال مجاهد: الراضية بقضاء الله، التي علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها، وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها، وقال ابن كيسان: المطمئنة هنا: المخلصة، وقيل: المطمئنة بذكر الله ﷻ والدليل عليه قوله تعالى: **﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكرِ ٱللَّه أَلَا بِذِكرِ ٱللَّهِ تَطمَئِنُّ ٱلقُلُوبُ (٢٨)﴾**[1]، وقيل: المطمئنة بالإيمان المصدقة بالبعث والثواب، وقال ابن زيد: المطمئنة لأنها بُشِّرت بالجنة عند الموت وعند البعث ويوم الجمع.

أما متى سيُنادى عليها بهذا النداء فالأرجح أنه يكون عند الموت وخروج الروح المؤمنة حيث تبشرها الملائكة بالروح والريحان وبرب راضٍ عليها غير غضبان فتخرج الروح المؤمنة وقد اطمأنت إلى موعود الله لها وتسيل برفق وسهولة من جسد صاحبها، قال ابن كثير: (وهذا يقال لها عند الاحتضار، وفي يوم القيامة أيضاً، كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره، وكذلك هاهنا)[2]، وقد سمعت رجلاً ألمانياً قرأ هذه الآية فكانت سبباً فى إسلامه، حيث قال وهو يبكى: (كثيراً ما توقفت عند هذه الآية، وكنت أتساءل: من هم هؤلاء السعداء

---

(١) سورة الرعد / آية ٢٨ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٠٠ .

الذين سيُنادى عليه بهذا النداء العذب عند احتضارهم؟ إنهم نفر قليل كُتبت لهم السعادة، فهل يا تُرى ستكون نفسى احدى هذه الأنفس؟). ومعنى النداء عليها بـــ ﴿**ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ**﴾ فالرب هنا قيل هو صاحب هذه الروح فهو ربها أى صاحبها، فتؤمر الروح بالعودة إلى جسد صاحبها وهو بدنها الذى كانت تعمره فى الدنيا، قال الضحاك وغيره فى الآية: (يأمر الله الأرواح يوم القيامة أن ترجع إلى الأجساد فيأتون الله كما خلقهم أول مرة)[1].

وقيل: بل المراد ارجعى أيتها الروح إلى موعد ربك، وموعد النفس المطمئنة هو الجنة، ولذا قال بعدها: ﴿**فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي (٢٩) وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي (٣٠)**﴾ .

وهناك قول ثالث لا يخلو من وجاهة؛ وهو قول الألوسى حين قال: (﴿**ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ**﴾ والمراد بالأمر بالرجوع إلى الرب الأمر بالرجوع إليه ﷻ في كل أمر من الأمور، والمراد بالأمر بالدخول في العباد الأمر بالدخول في زمرة العباد الخُلَّص الذين ليس للشيطان عليهم سلطان بالإكثار من العمل الصالح)[2] وعلى هذا فيكون النداء للنفس أن تلتزم طريق الله، وتسير على نهجه وهداه، ولا تغفل عنه فى ساعة من ليل أو نهار، بل ترجع إليه ﷻ فى كل أمورها، وتتوكل عليه فى كافة شئونها، فتكون عندئذٍ فى زمرة عباد الله الصالحين؛ الذين لا يغفلون عن أمره ولا يعتمدون إلا عليه ﷻ .

وأما النداء على النفس المطمئنة وأمرها أن تدخل فى عباد الله فى قوله: ﴿**فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي (٢٩)**﴾ فقيل: أى ادخلى جسد عبدى؛ ويشهد لذلك قراءة ابن مسعود: (في جسد عبدي)، وقيل: بل المراد التزمى أيتها النفس الطيبة صفوف عبادى المؤمنين، قال الألوسى: (﴿**فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي (٢٩)**﴾ أى في زمرة عبادي الصالحين المخلصين لي، وانتظمي في سلكهم

---

(١) تفسير الطبرى ٤٢٥/٢٤ .
(٢) تفسير روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ١٣٢/٣٠ .

وكوني في جملتهم، ﴿**وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي** (٣٠)﴾ عطف على الجملة قبلها داخلة معها في حيز الفاء المفيدة لكون ما بعدها عقيب ما قبلها من غير تراخٍ، وكأن الأمر بالدخول في جملة عباد الله ﷻ الصالحين إشارة إلى السعادة الروحانية لكمال استئناس النفس بالجليس الصالح؛ والأمر بدخول الجنة إشارة إلى السعادة الجسمانية، ولفضل الأولى على الثانية قدَّم الأمر الأول وجيء بالثاني على وجه التتميم) [١]، وفى ذلك إشارة إلى أهمية اختيار الجار قبل الدار، فإن هذه النفس قد اطمئنت أولاً بحسن الجوار مع المؤمنين، ثم اطمأنت بحسن الدار فى جنات النعيم ،ونظيره فى القرآن قول امرأة فرعون: ﴿**إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتا فِي ٱلۡجَنَّةِ**﴾[٢] فقدَّمت جوار الله بقولها: ﴿**عِندَكَ**﴾ ثم ذكرت الدار فقالت: ﴿**بَيۡتا فِي ٱلۡجَنَّةِ**﴾، فذكرت الجار قبل الدار .

وأما فيمن نزلت ... فجمهور المفسرين على أنها نزلت في عثمان بن عفان ﷺ حين اشترى بئر رومة وجعلها سقاية للناس، أو أنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب ﷺ، وقيل نزلت في خبيب بن عدي ﷺ الذي صلبه أهل مكة وجعلوا وجهه إلى المدينة فقال: "اللهم إن كان لي عندك خير فحوِّل وجهي نحو قبلتك" فحوَّل الله ﷻ وجهه نحوها فلم يستطع أحد أن يحوله بعد، لكننا لا نحصرها فى هؤلاء الصحابة الكرام بل هى صالحة للتطبيق على سائر الأنفس المؤمنة المطمئنة فى كل زمان ومكان، لأن العبرة عندنا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

---

(١) تفسير روح المعانى في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ١٣١/٣٠ .
(٢) سورة التحريم / من الآية ١١ .